محكم

مفارقات ميكيافيللي:

نحو قراءة جديدة

الطيب بوعزة

باحث مغربي

مؤمنون بلا حدود

Mominoun Without Borders

مؤسسة دراسات وأبحاث

قسم العلوم الإنسانية والفلسفة

جميع الحقوق محفوظة

مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث

All rights reserved

Mominoun Without Borders

يقول ميكيافيللي في كتابه "الأمير": "هناك بعد شاسع بين ما يعيشه المرء وما ينبغي أن يعيشه"[1] يمكن أن نستشف من هذا النص، وكذا من نصوص أخرى مشابهة في التوكيد على التباعد بين الواقع المعيش واليوتوبيا، لقد كان ميكيافلي على وعي بوجوب تغيير نمط قراءة الفعل السياسي؛ فبدل القراءة اليوتوبية التي تنظر إليه من منظور ما يجب أن يكون عليه، حاول فيلسوف فلورنسا التنظير لطريقة مغايرة، تقرأ الواقعة السياسية في مستواها الفعلي . وبهذا فصل بين الكائن وما ينبغي أن يكون عليه، فبلور حسب بعض القراءات الفلسفية رؤية موضوعية لواقع الاجتماع السياسي، جعلته أول مؤسس لعلم السياسة الحديث.

هذا هو التصور الشائع عن الطبيعة المنهجية للإسهام اليمكيافيللي في حقل الفلسفة السياسية، لكن عندما ندقق في المتن نجد أنه مخترق بموقف آخر يؤكد على جانب مغاير تمام المغايرة لهذا التصور، الذي يبدو ممتثلاً لهاجس الموضوعية والواقعية، وهو اعتقاد ميكيافيللي بأن التنجيم مدخل لتوقع الفعل السياسي والتنبؤ به. فكيف يمكن أن تستقيم الصورة المعطاة لميكيافيللي بوصفه مؤسس علم السياسة، القاطع مع الرؤية القيمية واليوتوبية، وبين العقل الذي يقرأ مستقبل الواقع السياسي من خلال التأمل الفلكي في مواقع وحركة النجوم؟

وليست هذه هي المفارقة الوحيدة والكبرى في الفكر الميكيافيللي، بل إن الأطروحة المحورية لفيلسوف إيطاليا؛ أي أطروحة استبداد الأمير، التي تؤسس للصورة التي اشتهر بها؛ أي صورة المفكر المشدود إلى دولة الأمير، والمنادي بتقوية نفوذه السياسي، بكل الوسائل، دون امتثال لأي معيار أخلاقي، أو اعتبار لحرية الشعب، هي مغايرة لصورة أخرى نجدها في متنه الآخر "أحاديث على المقالات العشر الأولى في تاريخ تيتو ليفيو"، الذي إن كان أقل شهرة من متن "الأمير" فهو لا يقل عنه أهمية من الناحية المعرفية، ولا هو أقل تعبيرًا عن خصوصية التفكير الميكيافيللي، في متن "أحاديث" لا نلقى ذلك التنظير لاستبداد الأمير، بل ثمة نزوع تحرري، وتوكيد على الحقوق السياسية للشعب، على نحو مخالف للروح الثاوية في متن "الأمير". فكيف يستقيم هذا التضاد بين "الأمير" و "أحاديث"؟ وهل هو دال على وجود تطور في التفكير وتحول، أم أن ثمة مدخلاً منهجيًا قادرًا على استجماع الفكر الميكيافيللي وقراءته في كليته دون فصل بين "الأمير" و"أحاديث"؟

لا يعنينا كثيرًا إيمان ميكيافيللي بالفلك والتنجيم، بل سنوجه اهتمامنا نحو الأطروحة الفلسفية الكبرى التي أسس لها بكتابه "الأمير"، من أجل فهمها في السياق الكلي للمتن، لذا فإن الهدف من هذا البحث هو إيجاد الوحدة الموضوعية لهذا المتن الفلسفي. بيد أننا لا نعني بهذا الهدف افتعال وجود تلك الوحدة، أو استئقال وجود تباين في السيرة الفكرية للفلاسفة، إذ نعلم أن كثيرًا من الفلاسفة شهدوا خلال صيرورة حياتهم تقلبات وتحولات معرفية، بعضها يصل الى درجة الجذرية والقطع، لكننا عندما تأملنا فكر ميكيافيللي لاحظنا أن ثمة

[1] - Machiavel ,(1980) Le Prince, Le livre de poche, Paris , p 5.

وحدة موضوعية غير مفتعلة، قادرة على تفهيمنا سبب المفارقات الكامنة فيه، فما هي هذه الوحدة؟ وكيف يمكن أن نقرأ في اختلاف المتن الميكافيللي اتفاقًا وتكاملاً؟

1- كيف ينبغي قراءة المتن الميكيافللي؟

يعد المتن الميكيافيللي من أكثر النصوص السياسية إثارة للجدل وأكثرها استحضارًا كلما تم التفكير في الفعل السياسي من حيث هو فعل منفصل عن الأخلاق والقيم. فلا يمكن قراءة التأسيس المعرفي للنظرية السياسية الحداثية دون إحالة على المتن الميكيافيللي. بيد أن هذا المتن،على كثرة ما قيل عنه، لا يزال محل بحث ودرس وتفكير في ماهيته ومقصوده، ولعل هذا الإكثار في القول راجع إلى جاذبيته من جهة، وصعوبة تأويله من جهة ثانية، إذ على الرغم من بنيته الأسلوبية التي تميل إلى الإفصاح والوضوح، فإنه من حيث شبكتُه المفاهيمية العامة ونسقُه الدلالي الكلي يَنِدُّ عن الاستدخال في إطار تأويلي محدد. ومن ثم يغدو التفكير في السؤال المنهجي "كيف نقرأ ميكيافيلي؟" مقدّمة ذات أولوية وسبق.

وإن سؤال القراءة يفتح على سؤال المنهج، ومن المعلوم أن المقاربات المنهجية التي كانت تنظر إلى الفلسفات واتجاهات التفكير ونواتج النظر والعقول من خلال شروطها المجتمعية، قد لحقها اهتزاز كبير في مصداقيتها، خلال القرن العشرين، وذلك بفعل شيوع رؤى منهجية غير تاريخية كالمنهج الشكلاني - خاصة مع إيخنباوم - والمنظور المنهجي البنيوي الداعي ليس فقط إلى إغفال الإحالة إلى خارج "النص"، بل إلى تمويت مؤلفه- مع رولان بارت-؛ أي إغفال الإحالة إلى حياة المبدع، وتقلباتها ولحظاتها المرحلية، ونوع التأثير الذي مارسته على التكوين الشعوري والفكري له؛ حتى أصبح هذا النوع من الإحالة مستهجناً في الذوق المعرفي المعاصر الخاص بمناهج القراءة والتأويل.

وعلى الرغم من بعض الإسهامات المنهجية التي حاولت التقليل من غلواء البنيوية، كاجتهادات لوسيان جولدمان الموسومة بالبنيوية التكوينية، التي حاول فتح المنظور البنيوي على سياق الصيرورة التاريخية، ورغم محاولة التجديد المنهجي للشكلانية مع تنيانوف وموكاروفسكي بالنظر إلى النص ليس بوصفه كينونة مغلقة، بل كياناً له علاقات مع السياق الثقافي والمجتمعي الذي اكتنف وجوده وتبلوره، فإن هذه المحاولات وغيرها لم تستطع تبديل هذه القناعة، ولا حتى التقليل من إفراطها المنهجي في غلق الرؤية بين سياجات النص. وفي السياق المنهجي ذاته الذي يغفل الشرط التاريخي أو يتجاهله أصلاً تبلورت منهجيات عديدة كهرمونطيقا النص التي أخذت اليوم تطرح نفسها بقوة كأسلوب لقراءة الفلسفات وتأويلها.

لكن رغم أنف البنيوية، وضداً على ذوقها المنهجي التزامني (السنكروني) المستبعد للصيرورة التارخية، أرى أن مقاربة فلسفة ميكيافيللي السياسية في مسيس الاحتياج إلى الإحالة - أحياناً كثيرة - إلى خارج متنها،

أي إلى الشرط الثقافي والمجتمعي الذي اكتنف ميكيافيللي ورافق تبلور وعيه السياسي. وهذه الإحالة، في اعتقادي، تغدو ضرورية إن أردنا فهم كثير من أفكار هذا الفيلسوف الإيطالي المخاتل، لكني عندما أقول أحيانًا - ولو كثيرة - فذلك توكيد على نسبية هذا الموقف المنهجي ومحدودية أدائه؛ لأن أي منهج هو مجرّد إضاءة، وإذا أردنا استعمال التشبيه الباشلاري، فإننا نقول: إن المقاربة المنهجية هي شعاع من الضوء بمقدار ما يسمح بإضاءة منطقة ما، فإنه يلقي على ما يحيطها ظلالاً تخفيها. وفي هذا توكيد على نسبية أي منهج في قراءة الفكر والوجود.

بيد أن هذه الإحالة لا تعني مشروطية هذا الفكر وانشداده الآلي إلى لحظته، بل في الفكر السياسي لميكيافيللي اقتدار ملحوظ على الحضور في تكييف الفعل السياسي حتى خارج سياق اللحظة التاريخية التي شهدت نشأته. وآية ذلك أن الموقف الفلسفي السياسي الميكيافللي له حضور ملحوظ، بل يمكن أن ننعت عالم السياسة اليوم بكونه عالماً ميكيافلليًا بامتياز؛ وذلك لأن القيم التي تسوده والمبادئ التي توجهه والوسائل المستخدمة فيه هي قيم ومبادئ ووسائل ميكيافللية، حتى وإن لم تنبن على سابق دراسة لنصوصه. وهذا ما يحول دون جعل دراستنا للنظرية السياسية عند ميكيافيللي، ارتحالاً إلى ماضٍ تاريخي انقضى وذهب، وإنما يجعلها تأملاً في حاضر السياسة بكل راهنيته. كما أن قراءة النص الميكيافللي من خلال لحظته التاريخية وشروطها القيمية والقانونية يفيد في إبصار دلالته واستشفاف أبعاده ومراميه، والاقتدار على تأويل ما بين سطوره، ورفع مفارقاته وتناقضاته. ومشروعية هذا المسلك المنهجي آتية من طبيعة النص السياسي ذاته، إذ لو قارناه بالنص الشعري أو السردي مثلاً، نجده من أكثر النصوص اقتراباً من سياق الحياة وإشكالاتها ومتطلباتها؛ فالرؤى والنظم السياسية هي، في نشأتها وتطورها، محاولة لفهم الواقع أو بلورة نظرية لتغييره، ومن ثم فدراسة النص السياسي يحتاج لا بدّ إلى مقاربة تستحضر ذلك الواقع وتحيل عليه.

لكن قراءة محدّدات النظرية السياسية الميكيافللية تعترضها عوائق كثيرة، إذ ثمة إشكالات عديدة تعوق الإمساك بهذه المحددات، وقبل بلورة إجابة عن هذا السؤال يجب الوعي بهذه الإشكالات والعوائق، وهذا ما سنعمل على تسطيره في الفقرات التالية، على أن نعود في ما يتلو من سطور إلى إبراز هذه المحدّدات. فما هي إذن العوائق التي تقف حاجزاً أمام أية محاولة تأويلية للنص الميكيافللي ؟

ثمة عائق آتٍ من شهرة كتاب "الأمير"؛ فميكيافللي من صنف الكتاب الذين كانوا ضحايا متنهم المشهور الذي يصبح حاجزاً يخفيهم ويخفي باقي كتبهم. فقد اعتادت الأبحاث الدارسة للفكر الميكيافلي الوقوف عند كتاب "الأمير"، بل والاقتصار عليه في حين أنه خلل بَيِّنٌ تناول التفكير السياسي لميكيافيللي من خلال نصه هذا منفصلاً عن كتابه الآخر الذي لا يقل عنه أهمية، وإن لم يناظره في الشهرة والذيوع، أقصد كتابه "أحاديث على المقالات العشر الأولى في تاريخ تيتو ليفيو"، ليس فقط لأن مؤلّفهما واحد، بل إن السبب يرجع إلى

كونهما مكوّنين ضروريين يستكملان بناء الفلسفة الميكيافللية، الأمر الذي يؤكّد في تقديري أنهما متكاملان وليسا متناقضين كما تذهب العديد من القراءات.

وإضافة إلى عائق نص "الأمير" ثمة عائق ثان آت من كثرة وتباين التأويلات التي حظي بها التأليف الميكيافلي، إذ يمكن القول: إن ثمة أقنعة عديدة تمنع إمكانية إبصار الفلسفة الميكيافللية في ذاتها بالفعل. ومن أكثر الأقنعة سماكة واقتداراً على إخفاء ميكيافيللي أقنعة التأويل التي تراكمت فوق نصه بدءاً من ظهوره، حيث حظي كتاب "الأمير" وبعض نصوصه الأخرى بتفسيرات وتأويلات وانتقادات شديدة التباين والتناقض، حتى استحالت إلى حاجز يمنع التواصل المباشر مع الفكر الميكيافللي، دونما حضور تلقائي لركام التأويلات الشائعة والمتداولة. لذا نقول:

إن ثمة صعوبة بالغة في التجرّد من المسبقات والرأي الشائع حول الميكيافللية، والنظر في نصوصها دونما حكم قَبْلي جاهز. غير أنه لا بد من القول، إن المتن الميكيافللي ذاته فيه من الميوعة الدلالية ما يبرّر تناقض التأويل وتضاد الفهم الذي أنتج عنه، فهو نص مليء بالمفارقات، ولا بد لنا في سبيل إعادة بناء معنى المتن من استحضارها والتأسيس لتجاوزها.

2- مفارقات المتن الميكيافللي

كثيرة هي المفارقات التي يحبل بها النص الميكيافللي، وجدل المفارقة لا يمس فقط أفكاراً جانبية في هذا النص، بل يمس أيضاً مفاهيمه المركزية التي ينهض عليها كل نسقه؛ فحتى الدلالات والطروحات الرئيسة التي عادة ما تُربط بفيلسوف فلورنسا نجد في نصوصه ما يؤكّدها وينفيها في الوقت ذاته، وكأن ميكيافللي أبى إلا أن يكون متنه ميكيافللياً أيضاً، أقصد متناً مراوغاً متقلباً يقول الشيء ونقيضه.

وعمق هذه المفارقات وشدة تضادها يطرحان إشكالاً حقيقاً بالتفكير والبحث هو إشكال الفهم والتأويل؛ فبعيداً عن القراءات الاختزالية السطحية التي تركن إلى استحضار فلسفة ميكيافللي مختصرة إياها في مجموعة من المقولات المتماثلة والجاهزة، نريد هنا أن نستحضر المتن الميكيافللي بكينونته دون إغفال تعدد أطرافها والتضاد الظاهر بين جوانبها. فما هي هذه المفارقات؟

أولاً: نكاد نجد في كل الكتب التي تؤرخ وتحلل الفكر السياسي لميكيافللي أن هذا الأخير بلور فكراً واقعياً، والحقيقة أن هذا ما يؤكده بنفسه في غير نص، مثل قوله في كتابه "الأمير": "بما أن قصدي هو كتابة أشياء مفيدة لمن ينصت إليها، فقد بدا لي ملائماً أكثر تتبع الحقيقة الفعلية الواقعية للشيء بدل تخيله"، ثم يضيف: "لقد تخيل البعض جمهوريات وإمارات لم تشاهد إطلاقاً ولم يعرف أنها حقيقية، لكن هناك بعداً شائعاً بين ما يعيشه

المرء وما ينبغي أن يعيشه، حيث إن الذي سيدع ما يحدث ويهتم بما يجب أن يحدث، سيتعلم كيف يضمحل بدل أن يتعلم كيف يحفظ ذاته".[2]

ومعلوم أن هذه الرؤية الواقعية هي التي جعلت بعض المفكّرين والفلاسفة ينظرون إلى الفلسفة الميكيافللية كونها رؤية منهجية نقلت الفكر السياسي من مجرّد تأمّل ووعظ إلى علم يقوم على استقراء الحدث الواقعي، بل يذهب بول جانيت إلى القول: إن ميكيافللي "هو مؤسّس علم السياسة الحديث"[3]. لكننا عندما نرجع إلى نصوصه يمكن أن نجد بسهولة ما يناقض هذا الحس الواقعي ويخلخل من هذا التقريظ المبالغ الناظر إليه بكونه مُنْجِز النقلة العلمية في الفكر السياسي، فنجد ما يخالف تمام المخالفة هذه الرؤية الواقعية العلمية المزعومة، إذ يمكن أن نقول: إن فيلسوف فلورنسا كان أسطوري الرؤية حتى في شأن الحدث السياسي ذاته، فقد كان مسكوناً بنزوع نحو أسطرة الكون، ليس فقط الكون الطبيعي، بل الكون السياسي والمجتمعي، حيث يرى أن ما من حدث سياسي يقع إلا وثمة إمكانية ماورائية للتنبؤ به بفضل قدرة الكهانة الروحية، فأي الميكيافيلليين نأخذ:

هل ميكيافللي الداعي إلى استقراء الحدث السياسي في صيرورته الواقعية، أم ميكيافللي الذي ينادي بالإنصات إلى صوت الكهانة والتنجيم؟

ثانياً: إن ميكيافللي عادة ما يقدّم بوصفه "رجل الأمير" المستبد الذي لا قيم له ولا مبدأ، حيث لا يحكمه سوى هدف الاستمرار في السلطة، وبالفعل نجد لهذه الفكرة العديد من الفقرات التي تؤكدها خاصة في كتابه الأشهر "الأمير"، حيث يبدأ بتقديم النظم السياسية مصنِّفاً إياها إلى نوعين:

أنظمة وراثية يكون فيها الحكم لشخص واحد وأنظمة جمهورية، حيث تسود الحرية. ثم يقف ميكيافلي ضد هذه النظم الأخيرة محبذاً النظام الأول. لكن يمكن إيجاد عبارات وسياقات في نص "الأمير" ذاته يمكن أن نلاحظ فيها لميكيافللي موقفاً مغايراً، بل هذا ما يفعله أحد الباحثين المتخصّصين في الفلسفة السياسية الميكيافللية، أقصد ميشيل برجيس في كتابه المعنون "ميكيافللي: مفكّر مُقَنَّعٌ"، حيث يقتطع من كتاب "الأمير" فقرة يقول فيها فيلسوف فلورنسا بأن ثمة نظماً تسودها ثلاث قوى هي: الأمير وأصحاب النفوذ وقوة الشعب، وأن "هذه القوى الثلاثة تعمل على مراقبة بعضها بعضاً"[4]، ثم يقفز برجيس إلى تأسيس استنتاج على هذا القول، هو أن ميكيافللي مع نظام سياسي يقر الحرية وفق مدلولها في زمننا الحالي.

---

[2] - Machiavel, ibidem.
[3] - Paul Janet, (1887) Histoire de la science politique dans ses rapports avec la science morale, Paris, Félix Alcan,
[4] - Machiavel, Le Prince,op cit ,p159.

صحيح أن مسلك هذا الباحث يبدو فيه افتعالاً واعتسافاً ملحوظين، لكنه ليس مسلكاً مستحيلاً أن نجد في متن ميكيافللي إشارات وإيماءات تثمن الحرية، لكن التأويل الكلي للنظرية الميكيافللية لا يكون باقتطاع مزق من السطور والعبارات، بل بمقاربة فكره في عمومه لا في تفاريق أجزائه، لكن ما سبق يؤكّد بوضوح عمق المفارقة التي تسكن النص الميكيافللي، والتي ينبغي لنا أن نجد لها الوحدة الموضوعية القادرة على استيعابها وتفسيرها في آن.

أما المتن الميكيافلي في كليته، فنستطيع القول إنه مخترق بمفارقة واضحة تتمثل في كون النزعة العامة التي تحكم نص "الأمير" هي نزعة توكيد الاستبداد، بينما يتجلى ميكيافيللي في كتابه "أحاديث على المقالات العشر الأولى في تاريخ تيتو ليفيو"، بمظهر المدافع عن الحرية. ولقد أوقع هذا التناقض الواضح المؤرخين المتخصصين في ميكيافللي في حيرة بالغة، حيث انتصب أمامهم سؤال مستفز: ما هو موقفه الحقيقي هل هو الموقف الذي بلوره في كتاب "الأمير"، أم موقفه في كتاب "أحاديث"؟ هذا هو اللغز الأكبر في المتن الميكيافللي، اللغز الذي ارتطم به كل باحث يحاول فهم الأطروحة السياسية الميكيافللية، وهو ما جعل الكثيرين يستبعدون ميكيافيللي من صنف مؤسّسي النظرية السياسية الليبرالية بدعوى أنه منظر لاستبداد الأمير.

ومن أطرف ما قرأته محاولة لتفسير هذه المفارقة هو ما كتبته ماري ديتز Mary Dietz، حيث ذهبت في دراستها "فخاخ الأمير" إلى أن ميكيافللي في كتابه الأشهر كان بصدد خداع الأمير المستبد، فأعطاه من النصائح ما هو كفيل بتدمير دولته، إنها بحسب نص عبارتها "نصيحة ملغمة"[5] من ميكيافللي لأمير ساذج هو لورنزو دي ميدتشي، ومن ثم فكتاب "الأمير" لا يعبّر عن حقيقة الموقف الميكيافللي .

ولعمري، إنّ هذا التفسير لدليل على الحيرة في الفهم، أكثر منه محاولة لإزالتها، ولذا يبقى السؤال المفارقة هو:

أي الميكيافلليين نأخذ هل ميكيافللي "الأمير" النازع منزع الاستبداد، أم ميكيافللي "أحاديث" المنادي بمجتمع الحرية والحكم الجمهوري؟

ثالثاً: إضافة إلى ما سبق، ثمة مفارقة تتجلى في فكرة أخرى لصيقة بالميكيافللية ورؤيتها للتاريخ السياسي، إذ يُقال: إن ميكيافللي يبلور رؤية دائرية، رؤية مسكونة بحس تشاؤمي، حيث يرى أن ثمة حتمية تاريخية تحكم النظم من حيث ميلادها ونموها وأفولها، وهو في ذلك يذكرنا بالنظرة الخلدونية وتحليلها الدائري لنشأة وأفول الدول في الغرب الإسلامي، إذ إن ميكيافللي يعتقد هو أيضاً بأن النظم عندما تصل إلى أوج عظمتها تبدأ لا بد في النزول والانحدار. لكن هذه الفكرة ذاتها - على شيوعها وكثرة ما في النص

[5] - Mary Dietz, (1986). "Trapping the Prince: Machiavelli and the Politics of Deception," American Political Science Review 80 .

الميكيافللي من توكيد وتكرار لها - يمكن أن نجد ما يخالفها مخالفة تامة، ودليل ذلك أننا نجد برجيس يذهب إلى تأويل بعض العبارات، خاصة تلك التي يتحدث فيها فيلسوف فلورنسا عن وجود ثلاث قوى تتبادل المراقبة، فينتهي إلى أن كاتب "الأمير" يقول بإمكانية ستاتيكية النظام أي استمراريته بفعل توازن القوى.

وهكذا نلاحظ أن النص الميكيافللي يطرح بناء على اكتنازه لمفارقات عديدة إشكالات عصية على الفهم، وهذا أصلاً ما أشار إليه برجيس بدءاً من العنوان الذي اختاره لكتابه "ميكيافللي مفكّر مقنع"؛ إذ ثمة أقنعة عديدة تغلف هذا المفكر الزئبقي تُصعب الجزم بحقيقة موقفه، بل لعل أكثر الأقنعة إسهاماً في إخفاء فكر ميكيافللي هي الأقنعة التأويلية التي أنتجها القرّاء والمؤرخون المؤولون لنصوصه، حيث خلعوا عليها دلالات شديدة التباين والاختلاف، حتى استحالت أحياناً كثيرة إلى طبقات سيمانطيقية تفرض نفسها على كل قارئ وتمنعه من التواصل المباشر مع النص الميكيافللي نفسه.

وأزعم أن من بين هذه الأقنعة التي تخفي أكثر مما تظهر القراءة التأويلية لبرجيس الذي يزعم الوعي بوجود هذه الأقنعة السيمانطيقية وضرورة الحذر منها، وقد رأينا من قبل كيف يقتطع النصوص وينتقي العبارات، وإن كان سياق بحثنا هذا لا يسمح بمزيد من إبراز نقائص قراءة برجيس وغيره من المؤولين المعاصرين. لكن، وعَوْداً إلى ما أشرنا إليه قبلاً، وهو أن مسلك برجيس وغيره ما كان يمكن سلوكه إلا بوجود قابلية لتباين التأويل داخل التأليف الميكيافللي ذاته. وهذا ما أسميناه بمفارقات النص؛ فالمتن الميكيافللي متن "ميكيافللي " بامتياز، أقصد أنه نص مراوغ مليء بالنقائض الأمر الذي يفرض ضرورة البحث عن ناظم لقراءته وتأويله. وعندما نقول ناظماً للقراءة، فلسنا نقصد اختزاله بمحو مفارقاته وتحويله إلى نص مماثلات منسجمة، باستدخاله في إطار تأويلي واحد مقفل، بل إن الناظم الذي نطمح إلى إيجاده هو الذي يُمَكِّنُ من قبول تلك المفارقات، واستيعابها وتأويلها دون محوها أو إرجاعها إلى منطق غير متناقض.

3- في دلالة المتن الميكيافللي

يتضح تأسيساً على ما سبق، أن النص الميكيافللي يحبل بمفارقات ونقائض دلالية عديدة، وأكبر مفارقة هي ذلك التناقض الشديد بين كتابي "الأمير" و"أحاديث على المقالات العشر الأولى في تاريخ تيتو ليفيو"؛ ففي النص الأول يظهر ميكيافللي كمُنَظِّرٍ للاستبداد ومشجّع على ممارسته، بينما في كتاب "أحاديث" يتبدّى مفكراً جمهورياً يؤكّد وجوبَ تأسيس مجتمع سياسي حر.

فكيف يمكن تخطي هذه المفارقة الكبرى التي تشكّل شرخاً واضحاً في الفلسفة الميكيافللية؟ وهل ثمة إمكانية لإيجاد ارتكاز تأويلي للجمع بين هذين النصين على تناقضهما الشديد واختلافهما البين؟

أزعم أن هذه الإمكانية متاحة، أما أساسها المنهجي فهو ما كنت قد بدأت بالإشارة إليه في المدخل المنهجي، حين انتقدت المقاربة الشكلانية والبنيوية التي تغلق الرؤية التأويلية بين سياجات النص، حيث بينت أن المتن السياسي ألصق بالواقع وإشكالاته بطبيعته، ومن ثم فأسلوب مقاربته تخالف لا بدّ أسلوب مقاربة النص الشعري مثلاً، أو غيره من نصوص بعض الأجناس الفنية الأخرى. وأقصد بهذا أننا لو أحلنا على شخصية ميكيافيللي والسائد السياسي في زمنه سنتمكن من استيعاب هذين النصين المتناقضين في إطار تأويلي واحد يجعل منهما نصين متكاملين غير متعارضين.

وأزعم أن تغييب هذا السياق التاريخي يجعل القراءة التأويلية للنص الميكيافللي قراءة عرجاء مضطرة إلى الوقوع في توهمات وتخرصات من قبيل ما وقعت فيه الباحثة الأمريكية ماري ديتز عندما انتهت إلى أن نص "الأمير" لا يعبّر عن وجهة نظر ميكيافيللي، بل هو مجرد فخ أحكمه كاتبه الداهية بمهارة وذكاء للإيقاع بلورنزو دي ميديتشي ليحفر قبره السياسي بنفسه، ودليلها على ذلك هو طبيعة النصائح التي قدّمها ميكيافيللي في كتابه.

أما عن ماهية هذه النصائح المفخخة، فهي حسب ديتز أربع:

- الأولى: النصيحة التي أسداها ميكيافيللي للأمير بأن يسكن في مدينة فلورنسا ذاتها.
- الثانية: أن يعمل على كسب دعم الشعب له.
- الثالثة: أن لا يبني حصوناً.
- الرابعة: أن يسلّح شعبه بأن يجعل منه جيشاً.[6]

إننا نخالف تمام المخالفة وجهة النظر هذه، لكن قبل بيان موقفنا والاستدلال عليه، لا بد أن نذكر أن أطروحة ديتز انتقدت من قبل متخصّصين آخرين في الفلسفة الميكيافللية، ومنهم الباحث الأميركي جون لانغتون[7] John Langton، الذي رأى في تلك النصائح الأربع، التي حسبتها ديتز فخاخاً، نصائح مخلصة، وبيان ذلك أن:

نَصْحَهُ الأميرَ بأن يسكن المدينة أطروحة موجودة أيضاً في كتاب "أحاديث"، حيث يؤكّد أن الأمير إما أن يسكن المدينة التي يفتحها أو يدمرها؛ لأن الارتحال عنها دون بناء حكم قوي لا يضمن استمرار ولائها. أما النصيحة الثانية؛ أي كسب ود الشعب، التي فسرتها ديتز بكونها لغماً خطيراً، هدف به ميكيافيللي إلى أن يدفع

[6] - ibid.
[7] - John Langton, ibidem.

لورنزو لكي يقف في صف الشعب ضد النبلاء، فأعتقد أنها مطلب يناغم الحلم الميكيافللي في تأسيس مجتمع الحرية، حيث يهدف إلى تأسيس إمارة قوية يكون نقطة ارتكازها هو الشعب، لتكون شرطاً لتوحيد إيطاليا لاحقاً.

أما النصيحة الثالثة؛ أي توصيته للأمير بألا يبني حصوناً أو قلاعاً، فالواقع أن هذه النصيحة موجودة أيضاً في كتاب "أحاديث"، مما يؤكّد أنها فكرة ميكيافللية نابعة من اعتقاد لا عن رغبة في نصب فخاخ كما تزعم ديتز. ثم لو راجعنا التبرير الذي قدّمه ميكيافيللي لعدم جدوى القلاع والحصون سنجده مستساغاً إلى حد كبير، حيث يؤكّد أن قوة الأمير هي في قوة الشعب لا في قوة الجدران التي يتمنع خلفها؛ لأنه ليس ثمة حصن قادر على حمايته إذا ما ثار الشعب عليه. ولذا، فالأصل في الحكم هو كسب ثقة الشعب ودعمه لا الانفصال عنه والتخفي من وراء جدر.

أما رابع الفخاخ المزعومة؛ أي تسليح الشعب، فلا يمكن أن يفهم إلا بالسياق التاريخي والرؤيا السياسية لميكيافيللي؛ إذ كان يحلم بإيجاد إيطاليا موحدة وقوية، وهذا لا يتحقق إلا بجيش قوي، ومثل هذا الجيش لا يمكن أن يوجد بمرتزقة، بل بشعب مسلح قادر على إنجاز الحلم بنفسه.

إذن، فما يبدو فخاخًا وتعارضًا، بين كتابي "الأمير" و "أحاديث على المقالات العشر الأولى في تاريخ تيتو ليفيو"، هو مجرد إسقاط ناتج عن قراءة متسرّعة لا تأخذ بعين الاعتبار السياق التاريخي.

ولتقديم بديل عن هذه القراءة الواهمة، نعد الآن إلى سؤال المفارقة:

كيف يمكن أن نرفع التضاد الدلالي الواضح بين متني "الأمير" و"أحاديث"؟

إن مدخلي في معالجة هذا السؤال هو تاريخية النص الميكيافللي بقراءته من خلال السياق الإيطالي بإشكالاته وإخفاقاته وأحلامه؛ فقد كان ميكيافيللي مفكراً قومياً يطمح إلى معالجة الأزمة السياسية الإيطالية المتمثلة في تشرذمها السياسي بتوحيدها في إطار قومي موحَّد. هذا هو الحلم الذي سكن وعي ميكيافيللي، ومن ثم كان السؤال الهاجس الذي انشغل به هو كيف السبيل إلى هذا الإطار السياسي الموحّد؟

لقد اعتقد ميكيافيللي أن إيجاد هذا الإطار يحتاج إلى حاكم قوي قادر على محو التجزئة . وقد كان يحلم بأن يكون حاكم فلورنسا لورنزو دي ميديتشي يشابه فرديناند حاكم إسبانيا، لذا كان شاغله في كتابه "الأمير" تقديم نصائح تمكّن الحاكم من أن يسود ويؤسس لإطار سياسي قوي قادر على التمدد والهيمنة على كل إمارات إيطاليا. ومن هنا نفهم سر الحس الاستبدادي الظاهر في نص "الأمير"، إنه استبداد مسوغ ومؤقت؛ لأنه شرط لتأسيس دولة قومية إيطالية. أما في كتاب "أحاديث"، فهو ينظر إلى هذه الدولة بعد أن تستوي وتكون؛ أي دولة جمهورية تمتثل لقيمة الحرية لا لقيمة الاستبداد.

هذه هي الوحدة الموضوعية الناظمة للسيرة الفكرية والسياسية لميكيافيللي، وتأسيساً عليها لا نعتقد أن نص "الأمير" نصيحة ملغمة كما تقول ماري ديتز، بل هو مقدّمة لتأسيس إمارة قوية يحكمها حاكم مستبد قادر على الهيمنة على غيره لتوحيد إيطاليا ونقلها سياسياً إلى مجتمع حر.

وبعد رفع هذا التضاد الظاهر بين نصي "الأمير" و"أحاديث" لنا أن نتساءل الآن:

ما هي دلالة هذه النظرية السياسية التي قدّمها ميكيافيللي؟

منذ "جمهورية" أفلاطون، ومتن "السياسة" الأرسطي سارت الفلسفة إلى معالجة سؤال السياسة في إطار مبحث الأخلاق، فكان السؤال قيمياً يمتثل لنمط التفكير بما ينبغي أن يكون، قصد الانتقال بالسائد والكائن نحوه، لكن ميكيافيللي لن ينجز قلباً للسؤال فقط، ولن يحدث فصلاً في مبحث السياسة الفلسفي، بل سينجز قطيعة تنقل السؤال السياسي إلى مرتبة منفصلة عن مرتبة السؤال الأخلاقي.

وهناك فكرة تتكرّر في كل القراءات والتأويلات المتناولة للفلسفة السياسية لميكيافيللي، وهي أن نظريته تتسم بالواقعية، بل يذهب مختلف الباحثين إلى النظر إلى واقعية الرؤية الميكيافيللية بوصفها تأسيساً حداثياً لعلم السياسة. والحال أن هذا التقييم لا يخلو من اختلال في بنائه، إذ يمكن أن نعترض عليه من داخل النص الميكيافيللي ذاته، الذي لا يخلو من نزوع نحو أسطرة الكينونة السياسية والاجتماعية، وقد أشرنا إلى ذلك من قبل، لكننا إذ نستحضر واقعية الرؤية الميكيافللية فليس لتوكيد علميتها، بل لتوكيد نفعيتها ونزوعها نحو فصل السياسي عن الأخلاقي تحت دعوى الواقعية، و أولوية الرؤية الواصفة. وميكيافللي بذلك يستحق أن يعد الإرهاص الأول بالنظرية السياسية الليبرالية؛ لأنها هي أيضاً توكيد على هامشية القيم الأخلاقية، بل استبعادها لتأسيس ما يسمّى بالحياد الأخلاقي تجاه سؤال السياسة والاقتصاد.

إن الفكر الميكيافيللي فكر ليبرالي سعى إلى علمنة السلوك والمشروع السياسي . ويعد هذا التحول الذي أخذ يؤكده ميكيافيللي في القرن السادس عشر علامة وإرهاصاً على التحول الثقافي والاجتماعي الكبير الذي أخذ عصر الحداثة، ويؤسّس له بالتدريج لوضع قطيعة مع العصر الوسيط ومفهوماته الدينية، وقيمه المؤسّسة للفعل السياسي والاجتماعي. وبذلك، فإن ميكيافيللي يؤشر في سياق الصيرورة التاريخية للحداثة الأوروبية على إرهاص بنقلة نوعية في فهم وتأويل الحياة السياسية، وهي ما سيسميه ماكس فيبر لاحقا بـ "نزع السحر عن العالم" Désenchantement؛ فالحداثة من حيث هويتها السياسية الليبرالية تعطي الأولوية للمصلحة على القيم، بل إن قيمة القيم مرهونة بمدى معيار المنفعة تحديداً. وبذلك فالفلسفة الميكيافيللية كانت مناغمة للتحول الحداثي الذي شهدته أوروبا، كما أنها بتوكيدها على الحرية - بمدلولها كحكم جمهوري - كانت إرهاصاً بالنظرية السياسية التي سيتم التأسيس لها لاحقاً؛ أي في القرن الثامن عشر في إطار ما سيسمّى بفكرة العقد الاجتماعي.

وبناء على ذلك يجوز القول: إن ميكيافيللي استجمع كل المواصفات التي تبرّر جعله أول منظر للسياسية الليبرالية على عكس ما هو شائع ومتداول في غالبية الاتجاهات الدارسة لفكره السياسي والمشدودة إلى متن "الأمير" دون وعي بالإطار العام لفكر ميكيافيللي.

MominounWithoutBorders

@ Mominoun_sm

Mominoun

الرباط – المملكة المغربية

ص.ب : 10569

هاتف: 00212537779954

فاكس: 00212537778827

info@mominoun.com

www.mominoun.com